عبدو القاعي

هَلْ تَنْتَهِي؟

روايـــة

منشورات
جامعة سيّدة اللويزة

NDU PRESS

هَلْ تَنْتَهِي؟

رواقيـــة

هل تنتهي؟

عبدو القاعي

منشورات جامعة سيِّدة اللويزة©
ص.ب.: ٧٢ زوق مكايل – لبنان
تلفون: ٠٩/٢١٨٩٥٠/١
فاكس: ٠٩/٢١٨٧٧١
www.ndu.edu.lb

الطّبعة الأولى ٢٠٠٧
القياس ١٤×٢١،٥ سم
تنفيذ مطابع معوشي وزكريّا

ISBN 978-9953-457-10-9

عبدو القاعي

هَلْ تَنْتَهي؟

روايــة

منشورات
جامعة سيّدة اللويزة
NDU PRESS

مقدّمة

إذا كان الكلام عن لبنان
فعن أيّ لبنان نتكلّم؟

هي حوارٌ يدور بين باحث وفيلسوفة من لبنان، هَوَيا التبصّر في روح الاجتماع اللبنانيّ، التي تدفع بالشعوب والثقافات المكوِّنة لأنظومته المجتمعيّة، إلى التعايش في ظلّ ميثاق للعيش المشترك، يصلح لأن يكون مثالاً لبناء المجتمعات البشريّة في الزمن المعاصر.

وهي حكاية تتناول مقاطع من تاريخ الدروب التي ينتهجها الاجتماع البشريّ بشكلٍ عامّ، والاجتماع اللبنانيّ بشكلٍ خاصّ، مركّزة في ذلك على الالتواءات التي عرفتها مسارات هذه الدروب، والتي أدَّت إلى إشعال الأزمات والنزاعات والحروب، في زمننا الحاليّ، منذ بدء سبعينات القرن العشرينِ وحتّى الآن.

وهي وصفٌ دراماتورجيّ للثقافات المتحدِّرة من الجذر الإبراهيميّ. بناء على هذا الوصف، تبدو تلك الثقافات وكأنّها تنحو نحو التصادم بعضها مع بعض، نتيجة لاستقواء بعضها على بعض. ويظهر هكذا، من خلال هذا الوصف، الاستقواء المذكور كعقدة في غاية التعقيد لدراما إنسانيّة في غاية التركيب، ولا نهاية لها. وتظهر، من ناحية أخرى، هذه الدراما كمواجهات عاصفة في

الذات البشريّة، بين الذات والذات، وبين صورة الذات وصورة الآخر، أدّت في ما أدّت، حتّى الآن، إلى النزاعات والحروب المتتالية في زمننا الحاليّ، على أرض فلسطين أوّلاً، ومن ثمّ على أرض لبنان، فأرض العراق، حتّى بلغت في السنوات الأخيرة مدن العالم الليبيراليّ: من مدينة نيويورك إلى مدينة لندن، فباريس ومدريد؛ والحبل على الجرّار.

وهي رواقيّة يتحدّى أبطالها لعبة السلطة القائمة في العالم المعاصر، والتي نتجت عنها الحالة الاستقوائيّة، كما تمّ وصفها أعلاه. ويظهر، من خلال التحدّي هذا، هؤلاء الأبطال، وهم يرسمون لهم طريقًا للتصدّي، إنطلاقًا من لبنان، للعبة السلطة تلك. هم يبدون، وكأنّهم مصمّمون على المواجهة الإنسانيّة واللاعنفيّة، بل الاصغائيّة إلى حدٍّ تحوّل أصحابها إلى وسطاء دائمين، من أجل كسر استراتجيّة هذه اللعبة الاستقوائيّة، التي تنحو حاليًّا إلى ضرب كلّ الضوابط الناظمة لآليّات التنافس، والمؤطّرة لقواعد التعامل في سوق ثقافة الحضارة الليبيراليّة.

بناءً عليه، يبرز هؤلاء الأبطال، كرجال ونساء شديدي العزم، ومستعدّين للمغامرة مع من يواكبهم على طريق إعادة بناء الروح المجتمعيّة بشكلٍ عامّ، وروح المجتمع اللبنانيّ بشكل خاصّ.

هم يبرزون كمتأصّلين بالروح، وليس كأصوليّين في التعبير، يعملون بجهد من أجل مواجهة التيّارات التي تعزّز لعبة السلطة والاستقواء، هذه اللعبة التي أدّت، برأيهم، إلى إضعاف أكبر

للضعفاء، وإلى سيطرة أقوى للأقوياء، ما دفع بالمجتمعات إلى فقدان كلّ قدرة على الصمود كحاضرات تسعى إلى إحقاق الحقوق الإنسانيّة، وإلى توسيع رقعة السلام والسعادة على الأرض.

وهي تطلُّعٌ إلى إنسانيّة الإنسان، ونداءٌ لعمق الروح التي تغذّيها، من أجل إعادة إطلاق هذه الروح الإنسانيّة في عمق النفس البشريّة، ودفعها في كلّ التكوينات الاجتماعيّة داخل لبنان، كما وعلى الصعيدين العربيّ والعالميّ، في السنوات المقبلة.

بالاستناد إلى هذا الجدل الرواقيّ، والتطلّعات الناتجة عنه، يتجرّأ كلّ من الباحث والفيلسوفة على دعوة جميع الذين يرغبون في مرافقتهم على معابر أروقة لبنان المشدودة إلى أصول التّاريخ، والمنفتحة على فسحات الزمان اللامتناهية، من أجل إعادة إطلاق روح الحوار الذي يتميّز به المجتمع اللبنانيّ، فيرسمون، من أجل ذلك الخطوات الآتية:

أوّلاً: الإقرار النهائيّ بحالة الأرض اللبنانيّة، كساحة لقاء وحوار بين حاملي أصول المعتقدات والثقافات الإبراهيميّة جميعًا، وبتفرّعاتهم العقائديّة، إنطلاقًا من الجذر اليهوديّ المنطلق من (أور) مدينة حضارة ما بين النهرين، إلى الجذوع المسيحيّة المنبعثة من (الناصرة وإنطاكيا من بعدها) والإسلاميّة النابعة من (الكعبة) مدينة العرب (مكّة).

ثانيًا: التجسيد الدائم والثابت لعيش هذه الأصول على الأرض اللبنانيّة، من خلال حوار مستمرّ، لا على أساس اشكال تعابيرها المتعدّدة والمتنوّعة، بل على أسس منابعها الروحيّة والخلقيّة الواحدة.

ثالثًا: التمرّس معًا، من خلال هذا الحوار، على سبل الارتقاء إلى مصافٍّ قمم التعبير الحضاريّ التي بلغتها كلّ من الثقافات الإبراهيميّة المعنيّة، انطلاقًا من أمثلة مستلّة من تواريخها الماضية؛ والسعي إلى إعادة إحياء هذه الأمثلة في تجارب جديدة، على أرض لبنان، وإهداء هذه التجارب إلى أبناء الثقافات الإبراهيميّة المنتشرة في مختلف أصقاع الأرض، والذين يقدِّرون بثلثي الخليقة في المجتمعات المعاصرة.

رابعًا: الالتزام بالشيم الديموقراطيّة للحكم، واكتساب هذه الشيم من عميق التجارب الناجحة لهذا الحكم الديموقراطيّ في التواريخ الماضية، مع تلمّس ما أنتجه الفكر الحقوقيّ والقانونيّ، بخاصّة في عصور النهضة، في الشرق كما في الغرب، من أجل إعادة تثبيت خلقيّة الحكم في الزمن المعاصر.

خامسًا: التأكيد معًا، كحاملين لأصول الثقافات والمعتقدات الموجودة على أرض لبنان، على مسؤوليّتهم الأبويّة في إنجاح هذا الحوار، والإصرار معًا على عدم قبول الضغوط من أحد، وبخاصّة من إخوانهم المتصارعين والمتشاكسين، والمستقوين بعضهم على

بعض، بين مغرب الأرض ومشرقها، من أجل توجيه مسارات هذا الحوار واتّجاهاته.

سادسًا: دعوة كلّ الراغبين في الحوار من أجل العيش المشترك، على قاعدتي الإخاء والمواطنيّة الواحدة، بين الثقافات المختلفة، على مائدته اللبنانيّة الرحبة، القائمة بشكلٍ مستمرّ، في ساحة عاصمة لبنان، بيروت، مدينة اللقاء بين مشرق الأرض ومغربها.

سابعًا: إشعار كلّ الحريصين على إنجاح الحوار بين الثقافات، وبخاصّة الثقافات الإبراهيميّة، بأنّ القيّمين على مائدة الحوار اللبنانيّة هم في انتظارهم، كما ينتظر الأب ابنه، ولو بدّد هذا الأخير ميراثه، كما في الكتب؛ أي، وهم متحلّون بنيّة الغفران الكامل والشامل لكلّ المساوئ السابقة والحاضرة واللاحقة.

ثامنًا: تحضير لبنان، لأن يكون هذا الجسر، الذي يصل، في عميق قلوب أبنائه، بين جميع معتقداتهم وثقافاتهم في لبنان، ومنه، في أصقاع العالم أجمع، عبر إعداد اللبنانيّين على عيش التقارب في ما بينهم، وهم يبحثون بعضهم عن بعض، من ضمن فسحات رحبة من الوساطات الدائمة والمستندة على تدعيم قدراتهم على الغيريّة في مواقفهم وقيمهم وسلوكهم.

عبدو القاعي



الفصل الأوَّل

في السؤال

أمل هل تنتهي؟

عبدو وهل ينتهي زمن النزاع؟

أمل سألتك عن الحرب في لبنان.
عن أيّ نزاع تتكلّم؟

عبدو أتكلّم عن لبنان،
المفرق العجيب، بين الشرق والغرب.
وأتكلّم عن النزاع المزمن
القديم الجديد
النزاع الذي يعكّر صفاء الملكوت الإلهيّ
المتربّع على شموخ جباله،
والمتّكئ على انفتاحات شواطئه
وانحناءات سهوله ووديانه.

أمل وهل لهذا النزاع من نهاية؟

عبدو وهل من نهاية لنزاع الآلهة؟

أمل عن أيّة آلهة تتكلّم، واللبنانيّون جميعًا،

بتعدّد أديانهم،
يؤمنون اليوم بإله واحد؟

عبدو عندما يخشى البشر على أصول إلههم،
يسقطون مع إلههم في تجربة نزاع الآلهة.

أمل ولماذا على الآلهة أن تتنازع دومًا في لبنان؟

عبدو الآلهة تتنازع حيثما تحتكّ بعضها ببعض
كأصول متغايرة ومتنافرة.

أمل فلتتناحر خارج لبنان:
في البحر،
في الغيم،
في أعماق الأرض،
في الزمن القديم،
في الفضاء الواسع.
لماذا دومًا لبنان؟

عبدو لماذا اختار جميعُ حاملي
كلمات الله المنزلة ورسالاته،
إلى البشر ،
أرض لبنان،

كامتداد لمدينة السلام أورشليم؟
ولماذا لجأوا إلى هذه الأرض
لحماية هذه الكلمات والرسائل،
منذ أقدم الأزمنة وإلى الآن؟

أمل وكأنّك تقول لي:
كيف لا،
ولبنان هو همزة وصل البشر
على مفترق طريقي الشرق والغرب!
فلماذا إذًا،
لا يعمل القائمون
على تدبير شؤون همزة الوصل هذه،
على مساعدة بعضهم بعضًا،
فلا يتشاجرو ويتقاتلو
كما هم فاعلون اليوم؟

عبدو إنّه السقوط في تجربة التّاريخ،
وإنّه الانجرار، في لعبة السلطة
على أرض تلاقي طرقات الناس
الآتين من أصول مختلفة.

فإذا بهذه الأرض

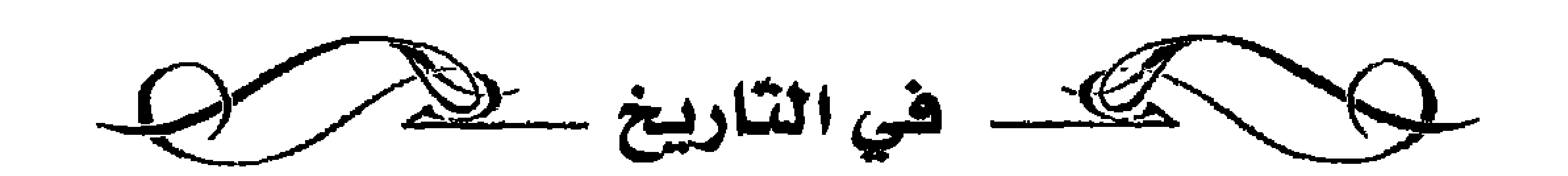
تجمع يومًا بين المنضوين فيها،
بأصولهم المختلفة،
وتفصل يومًا آخر فيما بينهم.

أمل تعال إذًا،
نبحث في جلابيب هذا التاريخ
الساقط في لعبة السلطة،
علّنا نتعلّم كيف نهديه إلى طريق لبنان
المرسومة أصلاً في قلوب أبنائه.

تعال نبحث في تجربة التّاريخ ككلّ.
وتعال ندخل بعد ذلك
في تجارب تاريخ العائلة،
والاجتماع البشريّ،
وتاريخ الدين والأديان.

وتعال نسائل أخيرًا تاريخ المجتمع/المدينة،
وحركيّات السياسة والاقتصاد من ضمنه.
تعال نحلّل هذه التواريخ
في العالم وفي لبنان.
وتعال نبحث في مجالات القيمة الإنسانيّة
المتشكّلة في هذه التواريخ،

علّنا نتوصّل
إلى تغيير مجرى حاضرنا
الساقط في صراع الأزمنة،
إنطلاقًا من مراجعة رؤانا ومواقفنا الإنسانيّة،
بطريقة تدخلنا إلى صميم المعنى التاريخيّ لوجودنا.



في التاريخ

عبدو أن نبحث في التاريخ،
هذا هو السؤال الذي لا جواب بحثيًا له.
هناك تواريخ متعدّدة ومختلفة.
وهناك تأريخات لهذه التواريخ،
تبحث عن التاريخ، فلا تجده
إلاّ في نظرتها إلى الأزمنة،
هذه النظرة التي تظهر التواريخ لها
وكأنّها تنتمي إلى منطق الزمان الذي يرضيها.

أمل رغم كلّ ذلك،
أنا أريد أن نبحث في التّاريخ،
كمدرج للزمان،
تحطّ عليه الأزمنة لتنطلق نحو مشاريعها الخاصّة.

أريد أن نسلّط الضوء على هذه الأزمنة،
وهي تنهل من الاحتمالات اللامتناهية لمعنى التّاريخ،
لتجتزئَ لها منطقًا تُسنِد إليه أهدافها.

عبدو رغم كلّ ذلك،

أنا أرى أيضًا مثلك،
أنّه من الضروريّ أن نبحث اليوم،
بعمق أكبر،
في التحدّيات الانتولوجيّة والقيميّة والعلميّة
التي يطرحها التّاريخ.

وأرى، بشكلٍ خاصّ،
أنّه علينا أن نسعى للإنتقال
من مجال البحث عن منطق الأزمنة،
إلى رحاب البحث التاريخيّ،
الذي يبحث عن نفسه خارج أيّ منطق،
ليبلغ لامنطق الخلق المندفع في أحداثه.

أمل أنا لا أفهم عليك.
هل الحدث وتاريخيّته هو في الخلق،
أم إنّ الخلق هو في الحدث التاريخيّ،
أي الحدث الذي يقع في مسار التّاريخ؟

عبدو الخلق هو هذه اللحظة البريقيّة
لسقوط الروح الآتية من الزمان
في الزمن التاريخيّ.
لكنّ هبوط الروح هذه في الوجود

لا يُختزَل معناه في الجسم المكوَّن،
من أيّة طبيعة كان:
بيولوجيّة، تقنيّة، علميّة أو خلافه...

أمل هل يجب أن أفهم أنّ الخلق هو في التّاريخ
ولكنّه ليس من التّاريخ؟
بربّك قل لي ما هو التّاريخ؟

عبدو التّاريخ... التّاريخ...،
هو هذه الهمزة التي تصل بين الزمان والأزمنة.
هو هذا المعنى المفقود في الأزمنة،
والذي يطلّ عليها من منافذ الروح.

أمل أوليس له إذًا من بداية ونهاية؟

عبدو لا...، لا...، ليس للتّاريخ من بداية ولا من نهاية.
التّاريخ لا يبدأ في زمن وينتهي في آخر.

الزمان هو التّاريخ الذي لا ينتهي،
والتّاريخ هو مسار الزمان، الذي
ما إن يسقط في الوجود
حتّى ينتفي في حقيقة وجوده.

أمل ماذا يبقى إذًا في الوجود الذي نعرفه؟

عبدو تبقى التواريخ،
كسلسلة من الأحداث التي تموت
مع الذين يكونون قد عاشوها.

هي تبقى،
لأنَّها تُعيد خلقَ نفسِها بصورة جديدة،
إنطلاقًا من أَحِفّتها في ذاكرة من يليهم
من أبناء وأحفاد.

وهي تبقى،
لأنَّ آثار هذه الأحفّة،
هي التي تنبئ عن مسيرة الزمان،
وهي تنهل معناها
من حضن صمت الخالق،
في ما هو أبعد من تاريخيّة الأزمنة.

أمل وكيف يمكننا تأريخ الأزمنة،
من دون البحث عن المعنى الذي هو،
كما تقول،
في التّاريخ الذي يدفع بها

إلى حيّز الوجود ويتخطّاها؟

عبدو	علينا القبول
بارتباك المنطق العلميّ الموضوعيّ
في بحثنا التاريخيّ.

هذا المنطق لا يكفي.
فإنّ مجرّد القبول ببداية التّاريخ
أدّى بنا إلى ترقّب نهايته،
إلى حدّ أنّ العديد من الباحثين،
ومنهم Fukuyama،
تكلّموا عن حصول هذه النهاية
في زمننا الحاليّ.

أمل	إذًا،
ليس هناك، برأيك،
من ما هو قبل التّاريخ préhistoire؟
ولا من ما هو في بداية التكوّن،
أي ما هو قبل قبل التّاريخ protohistoire؟
ولا أيضًا
من ما هو بعد نهاية التكوين،
أي،

ما هو بعد التّاريخ post-histoire؟

عبدو التَّاريخ هو كلّ شيء:
هو اللانهاية ومنتهياتها المتتالية؛
هو الروح والنفس والجسد؛
هو المكوِّن والمكوَّن والمكنون؛
هو الزمان غير المحدود وأزمنته المحدّدة والمحدودة؛
هو الكلّ وجزئيّاته؛
هو الأزمنة الماضية، والزمن الحاضر، والأزمنة التي ستليه؛
هو الجذور والأصول
والهويّات والانتماءات،
في بداياتها اللامتناهية؛
وهو آنيّات وظائف الحياة المنبعثة من الجينات
في احتمالات ظرفيّاتها المتشكِّلة دومًا؛
هو في ما كان،
وفي ما يكون،
وفي ما سيكون.

أمل توقّف بربّك.
دورانك يشعرني بالدُوار،
إلى درجة الرغبة في التواري،

كما في الانخطاف الصوفيّ.

توقّف من دون أن تكفّ
عن محاولة ملامسة المعنى على حدود المنطق.
هلمَّ بنا نعُدْ إلى لبنان،
وإلى تواريخه.

هلمّ بنا نجُلْ
في أزمنته الماضية والحاضرة والمرتقبة، مستقبلاً.
دعنا نستكشف ما تحمله هذه التواريخ والأزمنة،
في انعطافاتها نحو آفاقها،
وفي امتداداتها حتّى انطواءات جلابيب الزمان
اللامتناهي.

عبدو أنا أشعر أيضًا بالدُوار.
لبنان الذي أعيشه اليوم،
هو الذي يشعرني بهذا الدُوار.

أمل دُواري أحسست به في فلك دوَرانك؛
ودُوارُكَ المتأتّي من دوران أزمنة لبنان على نفسها،
دفعك إلى الدوران في فلك التّاريخ
التائه اليوم في دوران أزمنته.

عبدو وصفك لحالتي في غاية الصحّة.
نعم يا صديقتي،
الأزمنة ما إن تنحدر إلى أصولها الجزئيّة،
كما هي فاعلة اليوم،
حتّى تصبح دورانًا على ذاتها؛

والأزمنة هذه،
ما أن تصبح دورانًا في فلكها الخاصّ،
حتّى تعود لتتناحر على أرض لبنان،
حيث اتّخذت لها موطئًا،
وحيث الأصل لا تنكشف له معانيه العميقة
إلاّ في حوار جزئيّاته،
وفي وقبولها بعضها ببعض،
والتعلّم بعضها من بعض.

أمل إذا كان هذا صحيحًا،
فبربّك،
قل لي ببساطة،
ما أثر هذا الدوران الحاصل في العالم المعولم اليوم؟

ما أثره على الحياة الفرديّة والجماعيّة؟
ما أثره على العائلة والاجتماع البشريّ بشكل عامّ؟

وما أثره على الفرد والمجتمع بشكلٍ خاصّ؟

قل لي أيضًا،
هل يمكن إنهاء هذا الدوران؟
وهل يمكن التخلّص من النزاعات
والحروب الناتجة عنه؟
وكيف؟

عبدو لبنان، يا صديقتي،
هو من المحطّات الأولى لحلول التّاريخ
على جسم الأرض المتكوّن دومًا.
أزمنته، من أزمنة البدايات؛
وتواريخه،
استراحات على طريق حجّ شعوب الشرق
الملتصقة بأصولها.

تواريخ لبنان،
تحوّل استراحات الشعوب على أرضه،
إلى ردائف لبدايات الأصول،
ريثما تنتقل هذه الأصول من جديد
نحو أماكن تشعّبها وتغيّرها،
وربّما تحوّلها أو تجذّرها من جديد.

تواريخ لبنان،
هي منبّهات لتواريخ الأرض الإبراهيميّة،
منذ ما قبل نشأة ابراهيم في مدينته العريقة أُور،
وَسْطَ بلاد ما بين النهرين،
في القرن الثامن عشر قبل المسيح،
وإلى أيّامنا الحاليّة.

في هذه التواريخ،
تفرّعت الجذور إلى أصول وفروع مختلفة
لأبناء ابراهيم ولبني كنعان من قبله،
فراحوا يتناحرون بعضهم مع بعض،
حتّى خلال استراحاتهم المنشودة
على أرض لبنان.

أمل أفهم منك أنّ لبنان الاستراحة المنشودة،
كان عبر الأزمنة الماضية،
وما زال في زمننا الحاليّ،
ساحة للنزاعات والحروب،
كلّما اختلفت الأصول الكنعانيّة،
والإبراهيميّة من بعدها، في ما بينها.

أفهم أيضًا
أنّ لبنان كان موطئًا لوعد السلام،
لوعد الرسالات الإلهيّة بالوئام والحبّ،
كلّما اقتربت هذه الأصول والتفرّعات
بعضها من بعض.

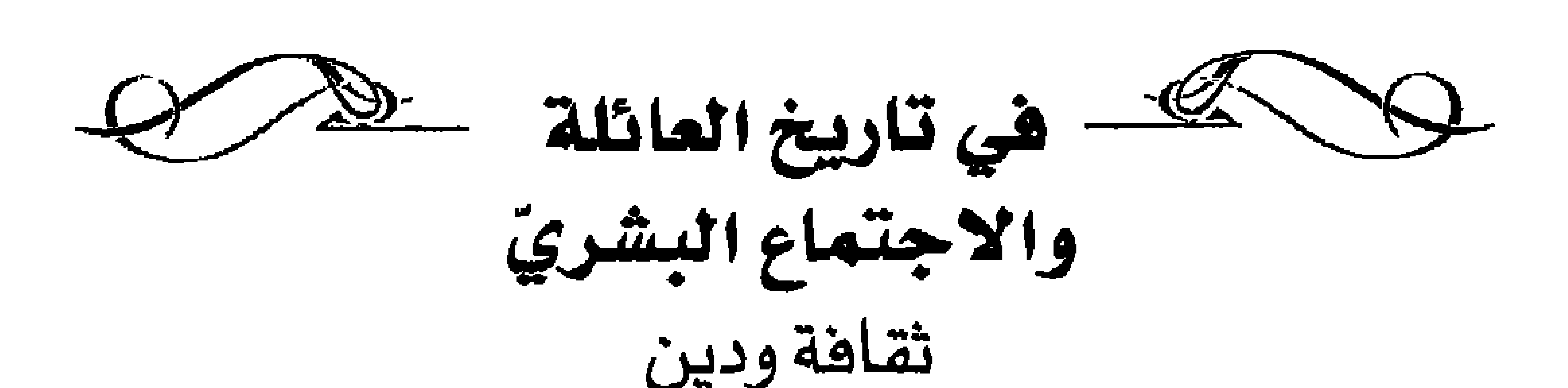
عبدو ما أبحث عن فهمه معك،
هو هذا السؤال الكبير
الذي يطرح نفسه نتيجة لاستنتاجاتك،
والذي يظهر، من خلاله التّاريخ
كدعوات وبدايات لا متناهية،
كما تظهر التّواريخ
كمجموعة من الطموحات والمطامع.

وما أرغب في تعميق البحث حوله،
هو خريطة الاتّجاهات
التي تأخذها حركة هذه الطموحات والمطامع.
فأنا ألاحظ،
أنْ، كلّما ازدادت هذه الأخيرة،
كلّما أطاح النزاع بتطلّعات السلام.
بناء عليه،
فأنا أسألك،

بحرقة الباحث الحائر:
كيف لها،
أي لهذه الحرب، أن تنتهي،
ما دام أنّ المطامع في العالم الإبراهيميّ تزداد،
وما دامت هذه المطامع
تفرّق أكثر بين الأبناء والأخوة،
على أساس أَنَّ على الأقوياء
أن يسيطروا على الضعفاء،
وأن يستغلّوهم؛
وما دام هذا العالم الإبراهيميّ،
كان في الماضي البعيد،
وما زال حتّى اليوم،
يعمل على تكوين عيّنة نموذجيّة
للعيش المشترك في لبنان،
سرّاءً وضرّاءً؟



الفصل الثاني



في تاريخ العائلة والاجتماع البشريّ

ثقافة ودين

أمل سألتك سؤالاً بسيطًا: هل تنتهي؟
فاستدرجتني إلى جلابيب التّاريخ،
ودهاليزه، وسراديبه، ومتاهاته المخفيّة والمخيفة.

وها أنت الآن تدفع بي
إلى النظر في حركيّة الزمن الطويل:
زمن البيولوجيا،
وزمن شبكات العلاقات،
هذه الشبكات التي تربط الأفراد
في ما بينهم ومع محيطهم،
عبر جدليّة اشتراطات ثقافيّة ودينيّة،
تحوك بها الصلات العائليّة والصلات الاجتماعيّة.

بربّك ما شأن كلّ هذا بسؤالي؟

عبدو أحاول أن أفتح المنافذ
التي يطلّ عبرها التّاريخ على أزمنة الحياة.

أمل وهل العائلة والتكوينات الاجتماعيّة الأخرى للعيش
هي من هذه المنافذ؟

عبدو كيف لا، ونحن نعرف أكثر اليوم،
أنّ النافذة الأولى،
التي يطلّ منها الإنسان على الحياة،
هي عائلته؟

كيف لا، ونحن نعرف أيضًا،
أنّ الإنسان الاجتماعيّ
الذي يربى كلّ شخص عليه
هو سابق لإنسانه الفرديّ؟

وكيف لا، ونحن صرنا على شبه يقينٍ،
بأنّ التكوين الاجتماعيّ للإنسان،
هو الذي يبدأ أوّلاً في الذات،
وبأنّ تاريخ الذات الفرديّة المتكوّنة دومًا،
يعبر أزمنة هذا التكوين،
من ضمن علاقة جدليّة معه.

أمل وماذا تعني بأسبقيّة الإنسان الاجتماعيّ؟
هل هي أقدميّة الذات الاجتماعيّة للإنسان،

في مسار تكوّن ذاته الفرديّة؟

عبدو بالذات!

ومن هنا تأتي أهميّة التّاريخ العائليّ فينا،

وبما في ذلك تاريخ الاجتماع الذي ننتمي إليه.

أمل وماذا تعني بالتّاريخ العائليّ فينا؟

عبدو تاريخ العائلة، هو هذا المسار لفعل الأزمنة،

في المكان الأساسيّ للتكوين الوجوديّ في كلّ إنسان.

والمكان هذا،

هو البيت الذي تحتضنه فيه أمٌّ،

ويرعاه أب،

ويشاطره العيش الحميم أخ وأخت.

في هذا البيت،

ينهل الإنسان معاني وجوده

من أسلوب الحياة المرتسم في قيم الذين يجاورونه،

وفي مواقفهم وسلوكيّاتهم.

وفي هذا البيت،

يتّسم الإنسان بمعالم الثقافة الخاصّة
التي يكتسبها من المواقف والسلوكيّات المختلفة.

تاريخ العائلة،
هو إذًا هذه الذاكرة الجماعيّة الخاصّة
ذاكرة التكاوين البيولوجيّة والاجتماعيّة والثقافيّة
القابعة في الوراثة،
والتي تنطبع في كلّ ذات،
انطلاقًا من البيت الذي يربى فيه الشخص،
ومن بيوت الآباء والأجداد.

هذا التّاريخ،
هو صرح قائم في كلّ فرد،
للحفاظ على خصوصيّته والدفاع عنها،
عبر علاقات ملزمة إلى حدّ الغصبيّة.

وهذا التّاريخ،
هو مسار هذه العلاقات
التي تجري
في إطار أدوار تتنوّع وظائف الحياة من خلالها،
بين أبٍ وأمّ، وأخٍ وأخت،

وجدٌّ وجدّة،
وعمٌّ وعمّة، وخالٍ وخالة،
بصفة كونهم يحملون إرث الحياة ذاته
في امتداداته وتشعّباته المختلفة.

أمل وما علاقة تاريخ العائلة هذا بسؤالي الأوّل:
هل تنتهي؟

عبدو سؤالك يا صاحبتي
يمتّ ظاهريًّا إلى ما يحدث في الساحة العامّة،
لكنّه ينتمي باطنيًّا إلى ما يتفاعل
في داخل الذات البشريّة.
فهل ستنتهي في الخارج،
قبل أن تنتهي في الداخل؟

وهل ستهدأ الساحة العامّة،
قبل أن يطلّ السلام
على الساحة الخاصّة في الذات،
من خلال الصلات الأوّليّة
التي تشبكها هذه الذات مع نفسها،
ومع أقرانها، ومن يجاورونهم؟

أمل ما دخل تاريخيّة الذات البشريّة بتاريخيّة العائلة؟

وما علاقة هاتين التاريخيّتين بأحداث الساحة العامّة؟

عبدو أنتِ تدفعينني بسؤالك هذا
نحو عقدة التَّاريخ المتكوّن فينا.

أنت تدفعينني نحو هذه العقدة
التي تتطلّب حلحلتها عناية بحثيّة فائقة،
للتمكّن من التمييز
بين التّاريخ والتواريخ، والتأريخات؛
وبين تواريخ العائلة والفرد والمجتمع، وتأريخاتهم
من دون الفصل في ما بينها.

من هذا المنظار،
العائلة هي مجموعة أدوار ووظائف
يضطلع بها الإنسان،
ولو بأشكال مختلفة،
في إطار شبكة صلات
تجمع بين أبعاد الحياة البيولوجيّة،
وبين أبعادها الأخرى العاطفيّة، والنفسيّة،
بتشكّلاتها الثقافيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة.

بهذه الأبعاد مجتمعة،
تحبك العائلة هويّة الإنسان،
بخيوط انتماءاته الأولى،
التي هو ملتزم بالتفاعل معها مدى الحياة.

أمّا التّاريخ،
فقد رأينا أنّه يعبر من الزمان إلى الأزمنة،
فيتجسّد في تواريخ متعدّدة،
لها تاريخيّات مختلفة.

ورأينا أيضًا أنّ هذه التاريخيّات،
ولو كانت تتباين في أبعاد أزمنتها وحركيّاتها،
فهي متلازمة بعضها مع بعض.

فتاريخيّة البيولوجيا الإنسانيّة،
في إطار أيّ حدث جسديّ،
أو ذهنيّ، أو عاطفيّ،
ولو كانت متميّزة، لجهة حقباتها،
عن تاريخيّة الاجتماع البشريّ،
بمختلف أنواع مجرياته،

فهما تشكّلان معًا
القاعدة الزمانيّة المكانيّة
لانبناء أهمّ مؤسّستين عرفتهما البشريّة،
واللذين هما:

المؤسّسة العائليّة،
حيث ينشأ الإنسان ويترعرع
في ساحاتها الخاصّة،
وفي ظلّ تضامن جماعيّ انتمائيّ،
تتشابك خيوطه وفقًا للأصول القرابيّة
بمختلف امتداداتها؛

والمؤسّسة المجتمعيّة،
حيث يعمل الإنسان
على تحقيق حلمه ببناء ساحة عامّة،
يتضامن فيها من لا قرابة بينهم،
على أساس حقوقهم المشتركة.

أمل كنت أعتبر أنّك أنت هو من يعقّد الأمور
في محاولاتك الولوج إلى عمق الواقع.
لكنّي أكتشف الآن، أكثر فأكثر،
أنّ الواقع البسيط ليس بسيطًا في الحقيقة.

هو بسيط في حدوثه،
لكنّ دراسة احتمالات هذا الحدوث،
واستشراف إمكانات العمل الفعليّ على تعديل مجرياته،
هما أمران في غاية التعقيد،
كون البساطة في الحدث،
هي الوجه الآخر للتركيب اللامتناهي لمكنوناته.

عبدو ملاحظتك هذه تجعلني أتجرّأ أكثر
على البوح عن حسّي البحثيّ
الذي يدعوني إلى أن أفهم:
أنّ حقيقة الواقع العائليّ هي في التّاريخ العائليّ؛

وأنّ هذه الحقيقة
هي أيضًا في التّاريخ البيولوجيّ؛
وفي التّاريخ الاجتماعيّ ككلّ،
وفي التّاريخ المجتمعيّ؛

وأنّ الحدث البيولوجيّ
الذي يقع في التّاريخ البيولوجيّ،
يقع أيضًا في التواريخ المختلفة؛

وأنّ الوقائع الأخرى،
هي في تواريخها وفي كلّ التواريخ.

التواريخ، يا صديقتي،
هي تسجيلات مختلفة لآثار الأزمنة.
هي تفعل في كلّ حدث،
بدرجات متفاوتة،
ما يجعل من فهم الحدث أمرًا مستعصيًا،
إلاّ إذا عملنا على تجنّب متاهات معرفتنا المجتزأة له،
والتي أدّت وتؤدّي إلى النزاعات والحروب.

فمعرفة الحدث،
ستبقى أمرًا محالاً علينا، إلاّ إذا واظبنا
على دراسة تفاعلات تواريخ الأزمنة فيه،
النزاعيّة منها والتفاوضيّة،
وإلاّ إذا تمرّسنا على الاصغاء، أكثر فأكثر،
إلى هذه الأخيرة،
أي التفاعلات التفاوضيّة،
لجهة الديناميّات الحواريّة الجارية فيها،
بدلاً من اللجوء إلى المواجهات العدائيّة.

أمل وكيف الوصول إلى ذلك؟

عبدو أوّلاً، التمتّع بالجرأة البحثيّة،
للولوج في مناقشة المسلّمات
الدينيّة والثقافيّة المدوّنة في الذات،
وفي المحيطين البشريّ والماديّ للحياة.

أمل أراك هنا، تجمع بين محاورة الأزمنة،
وبين مناقشة المسلّمات الدينيّة والثقافيّة،
بأوجهها المعتقديّة والرمزيّة.

فما شأن هذه المناقشة بالحوار، بشكل عامّ،
وبمحاورة الأزمنة، بشكلٍ خاصّ؟

وكيف لهذه المناقشة، ولهذا الحوار،
أن يجدا لهما طريقًا للتطبيق الفعليّ على أرض لبنان؟

كيف لهما ذلك،
ومعظم الثقافات والمعتقدات والمذاهب،
العائدة للجذر الإبراهيميّ، بأزمنتها المتفاوتة،
تتجاور في هذه الأرض على مساحة صغيرة؟

كيف لهما ذلك،
والناس الذين ينتمون

إلى هذه الثقافات والمعتقدات الدينيّة،
ينحون اليوم إلى التصلّب والتجذّر
في أصولهم المذهبيّة،
كمضامين مفهوميّة، وكرموز إيحائيّة،
بدلاً من أن يناقشوا هذه الأصول،
في ضوء منابعهم الروحيّة والإنسانيّة الواحدة؟

عبدو وكأنّكِ تعودين بي إلى سؤالِكِ الأوّل:
هل تنتهي؟
ولكن، بصيغة مختلفة.

جوابي لك هنا سيكون صريحًا وواضحًا.
لا يا صديقتي! ثمّ لا...! هي لن تنتهي.

الدراسات والأبحاث التي أُجرِيَت في لبنان،
وتلك خاصّة،
التي شاءَت الظروف أن أهتمّ بإجرائها
والإشراف عليها،
منذ منتصف الثمانينات وإلى الآن،
حول القيم، والعائلة، والممارسات الدينيّة،
وحول المساحة العامّة، والمواطنيّة،
والمشاركة في الشأن العام،

في إطار أنشطة كلّ من
المكتب التربويّ لراهبات القلبين الأقدسين،
ومركز الدراسات والأبحاث للشرق المسيحيّ،
وجامعة سيّدة اللويزة،
تنبئ بذلك.

كلّ هذه الدراسات والأبحاث
أشارت إلى تصاعد التصلّبات العقائديّة،
وإلى تأجّج النزاعات الثقافيّة،
في الذات وضمن العائلة،
كما وفي إطار العلاقات
بين المذاهب وبين الأطراف الانتمائيّة المختلفة
التي تذخر بها الساحة اللبنانيّة.

أمل ولماذا برأيك
هذا التصاعد في التصلّبات والتجذّرات
على مستويات الثقافات والمذاهب والأديان
المتجاورة في عيشها على أرض لبنان؟

لماذا هذه الانزواءات،
بينما اللبنانيّون يعلمون،
في عمق كيانهم،

بلزوميّة التفاعل معًا
على أكثر من صعيد،
كرسالة مفروضة عليهم،
لسلامهم وسلام العالم،
وفق ما نبّههم إليه قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني،
في رسالته المشهورة إليهم،
وإلى المسيحيّين بشكلٍ خاصّ؟

عبدو آه من سؤالك هذا!
أنت تدفعيني إلى البوح بما أخشى سماعه.
الناس،
بثقافاتهم ومعتقداتهم المتنوّعة والمتشعّبة،
من الأصل الإبراهيميّ الواحد،
المتجاورون على أرض لبنان
والمنتشرون في العالم كلّه،
غدوا يخافون اليوم أكثر
بعضهم من بعض.

هؤلاء الناس،
غدوا يخشون بعضهم بعضًا،
بفعل استقواء بعضهم على بعض،
في ظلّ الأجواء التكنولوجيّة

التي وسّعت من قدرات بعضهم
أكثر من بعضهم الآخر.

فأصبحت العائلات والمذاهب
والجماعات الانتمائيّة الأخرى،
بثقافاتها المتشابكة حينًا،
والمتضاربة حينًا آخر،
متاريسَ للدفاع
عن المنضوين تحت راياتها وشعاراتها.

وبفعل هذا الخوف المتزايد،
راحت الأصول المتنوّعة للجِذر الإبراهيميّ الواحد،
تفصل بين الناس
على أساس تعابيرهم المختلفة للمعنى الأساس،
الذي يجمعهم، من دون أن يصلحهم،
والذي يتشاطرون البحث حوله
ولكن على طرقات مختلفة.

أمل أفهم منك هنا،
أنّ ما يحدث في لبنان،
هو نوع من الارتداد
لما يحدث في العالم الإبراهيميّ،

الذي يجمع بين الناس في مشرق الأرض ومغربها:
من الهند وباكستان والجزر الماليزيّة شرقًا،
إلى روسيّا شمالاً،
وإلى الأميركيّتين غربًا،
وإلى أفريقيا أوقيانيا جنوبًا؟

عبدو هذا صحيح!
لأنّ ما يحدث في لبنان منذ سنة ١٩٧٥ وللآن،
هو صورة مصغّرة
عن احتكاكات الثقافات الإبراهيميّة،
بعضها مع بعض عبر الزمن.

هذا صحيح،
خاصّة، لأنّه،
بنتيجة هذه الاحتكاكات،
توصّلت إلى الاستقواء على غيرها من الثقافات،
ثقافة الأصول الأولى لأبناء إبراهيم،
وأتباعهم من بناة الدولة الرأسماليّة
على النموذج الفيبيري (Max Weber):
الذي تُختَصر قيمة الإنسان فيه

بكفاءاته العلميّة والعملانيّة،
وبما تحصِّل يداه
نتيجة لاقتداره في سوق المنافسة،
وبالنسبة لسائر أصعدة الحياة.

إنطلاقًا من هذه الحالة الاستقوائيّة،
سعى المتطبّعون بهذه الثقافة،
إلى الاستئثار أكثر فأكثر بالسلطة،
وإلى السيطرة على مقدّرات الشعوب
تحت شعار الحريّة وحقوق الإنسان.

وبنتيجة هذين الاستئثار والسيطرة،
أطاح هؤلاء الحقوق الإنسانيّة
المبنيّة على العدالة الاجتماعيّة،
وإعادة التوزيع،
والاقتصاد الكلّي،
وحقّ الشعوب بالسيادة،
وبخاصّة في ما يعود لشعوب المشرق،
أي أرض أصولهم.

فكانت الأزمات الكبرى

التي ساندوها وعزّزوها:
أزمة فلسطين،
جرّاءَ التسلّط الإسرائيليّ على أرضها وشعبها،
وأزمة النهضة العربيّة
في لبنان ومصر وسوريا،
وأزمة التحرّر الإسلاميّ
في إيران والعراق والخليج العربيّ، إلخ...

أمل أسمعك وكأنّك تكمل لتقول:
وهكذا كان ما كان أيضًا في أحداث لبنان،
خاصّة منذ بدء سنة ١٩٧٥،
حتّى وصلنا إلى ما نحن عليه اليوم...

إذا كان ذلك صحيحًا،
بربّك، قل لي:
كيف ترى حركيّات تواريخ الثقافة والدين.
وكيف ترى حركيّات العائلة
والصلة الاجتماعيّة ككلّ
في هذه الأحداث،
بدءًا بالثقافة؟

عبدو الثقافة،

هي في أصداء اسمك،
يا رفيقتي في فلك التحرّر الإنسانيّ.
هي أمل، بل هي الأمل:
هي الأمل في تطلّع الإنسان لمستقبل
يتعرّف فيه على قدراته،
في ما يعود لرغبته
في الانعتاق عن ذاته الضيّقة.

هي الرهان الوحيد لخروج الإنسان
من العبوديّات التي تتحكّم بمصيره:
العبوديّة البيولوجيّة،
والعبوديّة النفسيّة،
والعبوديّة الاجتماعيّة،
والعبوديّة الثقافيّة، وخلافه...

والثقافة،
هي في عمق أعماق الظلاميّات
القابعة في نفس الإنسان،
والتي يدعو اسمُكِ الكريم (أمل)
إلى الانقلاع منها،
وإلى الانخطاف نحو الأعالي الزرقاء،

حيث هيوليّة الانقشاع
تفتح الآفاق إلى امتداداتها اللامتناهية.

والثقافة،
هي في شكل التعبير.
هي هذا المكوّن التعبيريّ
الذي يلتصق به الوجود الفرديّ والجماعيّ للإنسان،
فيتأبّطه هذا الأخير،
متمسّكًا بجماليّاته،
وبقبائح سيطرته عليه، في آن.

وهي هذا المسلّم الرمزي
الذي يطرح نفسه كقيمة مطلقة،
وغير قابلة للتغيّر أو التحوّل،
من أجل التفاعل مع غيره من التشكّلات الرمزيّة.
أو من محاولات للتعبير بصيغ مختلفة،
من ناحية أخرى.

أمل ما هذا الكلام؟
هل يمكن للشيء أن يكون الشيء ونقيضه؟

فكيف إذًا للثقافة أن تكون الأمل بالتحرّر،
والتهديد الدائم بالعبوديّة في آن؟

عبدو نعم يا أملي بالثقافة.
الثقافة هي ككلٍّ قيمةٍ كبرى في هذا الوجود،
الشيءُ ونقيضُه.
هي كالحريّة والمسؤوليّة،
وكالتواضع والوضاعة.
وكالولاء والطاعة،
وكالحبّ والتضحية،...
يمكنها أن تحييَ الإنسان
وأن تَبلُغَ به إلى سرّ وجوده،
كما يمكنها أن تقتله
في مهد هذا الوجود.

الثقافة،
كما نتعامل معها اليوم،
هي للأسف مظهرُنا الإنسانيّ
نحن اللبنانيّين،
بعد أن أضعنا بوصلاتنا كلّها.

ثقافتنا اليوم،
هي حالتنا بعد أن فقدنا طموحنا الإيثاريّ،
الذي كان يهدينا إلى انقشاعاتنا
وإلى انعتقاتنا ممّا نحن عليه.

ثقافتنا اليوم،
هي وضعنا الركوديّ
الذي يلصقنا بوحول مستنقعاتنا،
بعد أن توقّفنا عن مشوار تحرير ذاتنا
انطلاقًا ممّا أنتجه الآخرون
في مجالات انفتاحات ثقافتهم.

ثقافتنا اللبنانيّة الحاليّة،
هي لغتنا،
بعد أن رحنا نفتّش عن عمق الجذور العتيقة فينا،
كما تمظهرت بتعابيرها التقليديّة الأولى،
لنبني منها صروحًا
نواجه من ورائها صروح غيرنا
المتعالية هي أيضًا
للدفاع عن مقيميها.

أمل أتريد أن تقول لي

إنّ تاريخ التقوقع الثقافيّ

غلب فينا تاريخ نهضتنا،

التي باشرنا بها في لبنان المعاصر،

ونحن ننوء تحت العبء العثمانيّ،

فخفنا،

ورحنا ندافع عن ممتلكاتنا الثقافيّة الخاصّة،

ونحاول تجديد عتيقها،

ونمنع عنها التفاعل والتشابك مع غيرها،

لنصون حماها تجاه التقوقعات الأخرى

الجارية في محيطنا بشكل متزامن؟

عبدو بالضبط!

هذا ما أريد أن أقوله لكِ،

لكنّ هناك ما هو أمرّ وأقسى من ذلك.

ما هو أمرّ وأقسى،

هو تأثير هذا التقوقع على معتقداتنا الدينيّة،

وعلى عائلاتنا،

وصلاتنا الاجتماعيّة ككلّ.

وما هو موجع في هاتين المرارة والقساوة،
هو تصلّب كلّ العلاقات الإنسانيّة،
وانتقالها من رحابة الانفتاحات
على التغيّر والتطوّر والتحرّر،
إلى مضيقات التقاليد القاسية
التي تضبط السلوك الإنسانيّ في أطر صارمة،
لتسهّل من السيطرة عليه في إطار سلطويّ قامع.

وهذا ما أدّى تدريجيًّا،
منذ سنة ١٩٧٥،
إلى تعزيز المواجهات بين اللبنانيّين.
فإذا بهذه المواجهات،
بعد أن كانت تفصل بين اللبنانيّين،
على أساسِ تفاوتاتهم
السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة،
غدت تفرّق بين الناس أكثر،
وفقًا لقواعد متاريسهم العقائديّة،
ورموزهم الثقافيّة
المتباينة والمتباعدة في أصوليّاتها العائدة.

أقول هذا بمرارة الباحث،
بعد أن تأكّدت لي المشهديّة اللبنانيّة الحاليّة،
من خلال الدراسات والأبحاث
التي أدرتها وأشرفت عليها،
طيلة السنوات العشرين الماضية.

أمل

أُحسّ بصدى صوتِكَ في عميقِ أحشائي،
وأشعر بكَ
عبر توتّرات موجات هذا الصدى
وظلال ارتداداته.
أشعر وكأنَّك تردّد،
بحرقةِ الباحث عن الأمل
في هنيهات الرَّجاء الضائع:
كيف لها أن تنتهي؟...

وما أن يتلاشى هذا الصدى،
أسمعك تقول من جديد:
كيف لها أن تنتهي،
وقد بلغت المخاوف اليوم،
من الآن ومن الغد،
أعماق الذاكرة البشريّة؟

كيف لها أن تنتهي،
وقد ترسّبت هذه المخاوف
في ذاكرة اللبنانيّين
الحاملين في تاريخهم
أصول الذاكرات كلّها؟

عند هذا الحدّ من تلمّسي لأصداءِ صوتِكَ
الهائمِ في عدم يقينه،
أراكَ تدورُ على نفسكَ متمتمًا:
كيف لها أن تنتهي،
وقد جعل الخوف الذاكرة الإنسانيّة
بشكلٍ عامّ،
وذاكرةَ اللبنانيّين بشكلٍ خاصّ،
تُعيد صياغة ذاتها
إنطلاقًا من أواليّات دفاعاتها البدئيّة؟

كيف لها أن تنتهي،
والذاكرات كلّها
راحت تعمل على حماية نفسها،
في إطار مواجهاتٍ تشبه تنازع البقاء،
وقد غدت موارد الأرض،

الضيّقة أصلاً،
تضيق أكثر فأكثر على سكّانها،
وتقلقهم جميعًا؟

وأنا في إصغاءاتي وتلمّساتي هذه،
رحتُ أتصوَّرُكَ تدورُ على نفسِكَ
حولَ سؤالٍ تطرحُهُ على ذاتك
بلهجةِ الحائر قائلاً:
إذا كانت أشكال النزاعات الجديدة في العالم،
هي على هذا النحو،
في علاقتها مع عمق الذاكرة الإنسانيّة،
فكيف لها أن تنتهي اليوم،
بعد أنْ انفجرت في لبنان منذ سنة ١٩٧٥ ،
وبعد أن تصاعدت ثمّ تلاينت،
ثمّ عادت لتتصاعد،
وصولاً إلى ما نحن عليه في الزمن الحاليّ؟

وأتصوَّرُكَ تتمتم من جديد:
كيف لها أن تنتهي،
في العالم بشكلٍ عامّ
وفي لبنان بشكلٍ خاصّ،

في غيابٍ كاملٍ للجهود البحثيّة والتطبيقيّة
الهادفة إلى مراجعة التوجّهات
الاستثماريّة التنافسيّة،
إلى حدود الاستغلال الكامل
لموارد الأرض والإنسان،
التي بنيت عليها الحضارة الليبيراليّة؟

كيف لها أن تنتهي،
وقد دفعت هذه الحضارة
بالمجتمعات إلى الانحلال،
لجهة أبعادها الحقوقيّة
المبنيّة على العدالة كمنطلقٍ لممارسةِ الحريّة؟

إنطلاقًا من كلّ هذه التساؤلات
ومن كلّ هذه التصوّرات والتوسّلات،
تعال يا صديقي،
نبحث معًا في تاريخ المجتمع
الذي نشكو من انحلاله اليوم.

تعال نعمّق النظر في حركيّات أزمنته،
خاصّة خلال الربع الأخير من القرن الماضي
وخلال السنوات الستّ الأولى من هذا القرن.

وتعال ندقّق،
بصورةٍ أخصّ،
في المجتمع اللبنانيّ،
وفي حركيّته الحاليّة،
علّنا نهتدي إلى بصيص أملٍ
ينير خطانا نحو منافذ السلام.



الفصل الثالث

في تاريخ المجتمع...
أين ذهب المجتمع اللبنانيّ؟

عبدو إسمحي لي، يا رفيقتي،

أن أكمل الحوار معكِ ولو على دروب مختلفة.

إسمحي لي،

أن أعود وألتقي بكِ من جديد على طريق المجتمع.

إسمحي لي،

خاصّةً في هذا اللقاء،

أن أبوح بهواجسي التي نمت فيّ تدريجيًّا،

وأنا أناقشُ أبحاثي والأبحاث الأخرى

التي أجريت على المجتمع اللبنانيّ

خلال العقود الثلاثة الماضية.

إسمحي لي أن أصرّح، برصانة الباحث،

أنّ هذه الهواجسَ

تشعرني بالقلق والخوف إلى حدود الرهبة.

إسمحي لي أن أقول لكِ،

بهلع المواطن المرتبك

على طريق بحثه عن ذاته في آخريّته،
أنّ فكرة المجتمع ككلٍّ،
وفي ما يعود لتطبيقها في لبنان،
هي اليوم
في وضعٍ من التحلحل والتراخي والتلاشي،
حتّى الذوبان الكامل،
في محيطاتِ سيولة المواصلات التكنولوجيّة
وسرعة حركتها.

إسمحي لي أن أفصح لكِ بصراحة،
بأنّي أشعر وكأنّي في محيطٍ مائيّ،
حيثُ أمواجُ السيولة المندفعة بسُرعَةِ عينِ العاصفة،
تؤول بالانتظامات السلوكيّة المجتمعيّة،
التي تتطلّب الكثير من الثبوتيّة في مبادئها
واليسير من البطء في حركتها، إلى التفكّك،
تحت وطئة التكييفات المتسارعة
التي ألزمتها بها هذه السيولة،
وهي تتدفّق كالهيجان "التسوناميّ".

أمل آهٍ منكَ، ثمّ آه!
ما أن أوجّه لكَ اقتراحًا،
بقصد الاقتراب أكثر من منافذ الحلول،

حتّى أراك تعودُ وتُطبقُ على هذه المنافذ،
لتُظهر السوادات التي تشوبها.
فلماذا هذه السوادات كلّها يا صاحبي؟

عبدو أنا لا أعرف لماذا.
هي تملأ سمائي كلَّما حاولت أن أنظر
إلى حلّ السلام من باب المجتمع.
أنا لم أقصدْها.
هي التي تَقصِدُني اليوم في قلبي ونواياي وسلوكي،
كما وفي قلوب الناس ونواياهم وسلوكهم،
في لبنان والعالم.

المجتمع، يا أملي،
هو هذا الكائن الجماعيّ المفترض في الذهن،
لكنّه غير موجودٍ بالضرورة فعلاً.

هو تكوين يُبنى في قلوب الناس،
بإرادة السلام،
وبالنضال من أجل هذه الإرادة،
من قبل الأفراد والجماعات المختلفة،
والمتباينة في انتماءاتها وثقافاتها وتواريخها.

وهو تثبيت لهذه الإرادة
في المقاصد والالتزامات العرفيّة والمكتوبة
الصادرة من هذه الجماعات،
وهو صياغة دائمة لهذه الإرادة
في العلاقات الاجتماعيّة المختلفة
التي تبنيها في ما بينها.

هو يدوم بدوام هذه الإرادات والمقاصد
والالتزامات والنضالات،
وهو يزول بزوالها.

أمل أين نحن من هذه الإرادات والمقاصد
ومن هذه الالتزامات والنضالات،
من أجل المجتمع اليوم؟

أوَليس من وسيلة لإخراجها من سوادات ظلمات
انحلالاتها؟

عبدو سؤالكِ هذا يربكني ويوجعني في آن.
نتائج الأبحاث المتتالية، التي ذكرتُها آنفًا،
تُعزِّزُ فيّ الشعور بأنّنا اليوم في العالم ككلّ،
وفي لبنان على وجه التحديد،

على الدرب الراجعة من المجتمع
إلى الاجتماع القبليّ.

أنا أشعر بالتحديد،
أنّنا نحن اليوم على درب العودة،
العودة إلى مطارح الطمأنينة المستهْلِكَة لإنسانيّتنا
والبانية صروحها على أشلاء حريّتنا.

وأنا أحسّ،
في عمق شعوري،
أنّ الحريّة هي وحدها قادرة على مساعدتنا
لبلوغ سموّنا البشريّ،
عبر إعتاقنا من عبوديّاتنا المختلفة.

أنا أشتمّ على هذه الدرب
روائح الأعشاب البريّة،
والمستنقعات الراكدة،
والبوادي الكالحة،
والرّمال المتأجّجة من عطشها.

أنا أشعر بالغثيان
من شذا عطر هذه الروائح العابق،
وهو يتصاعد من جوانبها.

وأنا على هذه الدرب،
أرى نفسي، مع جميع قاصديها،
نلجأ من جديد
إلى عائلاتنا وأدياننا ومعتقداتنا،
كمآوٍ لمخاوفنا، علّها تعيد لنا
استقرارنا وتوازننا،
عبر رضوخنا لمقدّرات سلطانها البطريركيّ علينا،
الذي يطمئنُنا،
لكنّه يسلبُنا إرادتَنا
في تعاريج جبروت ملكه.

أنا أتحسّس بدفءِ الأميّة
المهدِّئ والقاتل في آن،
هذا الدفءَ العابقَ
الذي يغمر الأجواء بشكلٍ عامّ،
وأجواء لبنان بشكلٍ خاصّ.

أنا أشعر بالدّوار من رائحة عفن أميّتنا
هذه الأميّة التي عدنا لنركن
لحرارة البدئيّات المطمئنة في حضنها المترهّل.

وأنا في هذه الحالة،
يحزّ في نفسي ألمُ الفراقِ،
فالبعدِ عن الدربِ التي كنتُ اعتدتها،
دربِ المدينة،
دربِ الـ polis،
دربِ المجتمع،
حيث كنت أطمح، وبفخر،
إلى أن أتجاوز حيِّز القرابة
والحيِّزات الإنتمائيّة الأخرى كلّها،
لأبلغ حيِّز اللقاء مع الآخر الغريب،
حيث يمكنني التعرّف إلى ما أجهله في ذاتي.

أمل فهمتُ جيّدًا مقصدَك. وَحياتِك، فهمت.
لكنْ، يبقى السؤال عن أسباب هذه العودة الراجعة،
وعن سبيل دفعِ الناس، من جديد،
إلى درب المجتمع،
التي هي في نظرك درب المدينة بمعنى الـ٧ polis؛
فماذا تقول؟

عبدو أعود وأكرّر لكِ هنا ما قلته سابقًا:
إنّه السقوط في تجربة التّاريخ،
وفي لعبة السلطة.

البشريّة أرادت، في العقود الماضية،
أن تسيطر على التّاريخ،
لتنهيه على هواها، وفقًا لحساباتها العقلانيّة،
حيث العقل هو المظهر الآخر للسلطة
سلطة كلٍّ من المال، والتكنولوجيا،
والقيم التي تساندهما.

والبشريّة انزلقت أيضًا
في العقود الماضية
نحو هذه السلطة المركّبة، التي لا تُقْهَر،
فراح القيّمون عليها،
يضعون كلَّ من لا يشبههم
في خانة التأخّر أو في موقع العصيان.
كما راحوا يتّهمون كلّ من يواجههم،
بجرم الإرهاب والعداءِ الإنسانيّين.

من هذا المنطلق، يمكن القول
إنّ هذه السلطة المبنيّة على البرهان العلميّ
كما يَصوغه الخبراء،
وعلى القدرة التكنولوجيّة
التي لا سرعة مماثلة لتطوّرها ولتقدّمها،
تبني ذاتها بذاتها.

هي لا تحتاج إلى الإنسان لتُمَشْرِعَ حكمها،
أو بالحريّ، لتشرّع تحكّمها به؛
بل هي التي تمشرع للإنسان
قيمه ومواقفه وسلوكيّاته؛
وهي التي تشرِّع له
تسلُّطَه على من لا يجارونه في الامتثال لها؛
ممّا أدّى إلى ضرب التعدديّة الفكريّة والثقافيّة
هذه التعدديّة البانية لما هو مجتمعيّ
في الأوطان والدول المعاصرة.

أمل أتريد أن تقنعني بأنّ وقوع الإنسان في سلطة المال،
المتعاقدة مع الاقتدار التكنولوجيّ،
بقيمها الماديّة-الماليّة،
وتوجّهاتها العقلانيّة-الموضوعيّة،
هو الذي خرّب ما هو مجتمعيّ

في العالم وفي لبنان بشكلٍ خاص؟

إذا كان هذا ما تعتقده حقًّا،
بربّك، إشرح لي أكثر
ماذا يعني لك بالضبط ما هو مجتمعيّ؟
وكيف تمكّنَتْ منه هكذا قوى المال والتكنولوجيا؟

عبدو اسمحي لي أن أقول لكِ
إنّ ما هو مجتمعيّ،
هو ما لا وجود له أصلاً في الاجتماع البشريّ.

هو هذا النقيض لما هو موجود،
وليس المكمّل له كما جرت العادة في اعتباره.

ما هو مجتمعيّ يا صاحبتي،
هو في هذه الإعادة الكاملة لصياغة الاجتماع البشريّ؛
ليس انطلاقًا ممّا هو جوارٌ وقربى،
بل ممّا هو بعدٌ وغربة؛
وليس استنادًا على ما يتشابه به الناس،
بل على ما يختلفون بصدده.

هذه الصياغة الجديدة
تعيد تشبيك الصلات الاجتماعيّة،
ليس على قاعدة تضامنيّة
تجمع بين الأفراد والجماعات المتآلفة،
بل على قاعدة حقوقيّة
توحِّد بين المتغايرين وغير المتساوين
في قدراتهم وممتلكاتهم،
على أساس احترامهم بعضهم لبعض،
بشكلٍ متساوٍ،
ومناصرة بعضِهم بعضًا،
من منطلق الحدّ من التفاوتات التي تفصل بينهم.

أمل أنت صارمٌ جدًّا في اشتراطاتك، إلى حدّ اللاعملانيّة.

عبدو المشكلة يا صاحبتي،
هي في الرضوخ،
وبصورة مبكرة جدًّا، إلى العملانيّة.

ما هو عملانيّ،
هو ما هو قائم في العلاقات بين الناس،
والذي يتجسّد في سيطرة الأقوياء على الضعفاء.

المجتمع، يا صديقتي،
هو في مواجهة هذه العملانيّة المبكرة،
للتوصّل إلى بناء الحاضرة الإنسانيّة (la cité)،
التي ورد عنها في مؤلّفات المؤرّخ الإغريقيّ Thucidide،
منذ أربعماية وخمسين سنة قبل الزمن الميلاديّ،
أنّ الآلهة غاروا من البشر
لأنّهم تمكّنوا من بناء الحاضرة،
أي المجتمع الإنسانيّ الحقوقيّ.

التّاريخ، هنا،
هو تجربة الإنسان على مرّ الزمن
في البحث عن معنى وجوده؛
فكلّما ارتبط هذا الأخير بالحدث،
سقط في تجربة التّاريخ،
ووقع فريسة لواقعيّته.

المجتمع هو التّاريخ

هو هذا المعنى المفقود أو غير الموجود،
الذي على الإنسان إلتقاطه
وإعادة خلقه في كلّ لحظة من لحظات أحايينه،

عبر مواجهات دائمة مع واقعيّته.

المجتمع هو ترجمة لمغنى التّاريخ.
هذا ما فاتنا في زمننا الحضاريّ المعاصر،
إذ أعتبرنا أنّ التّاريخ
هو من الواقع وفي الواقع،
وأنّ المجتمع
هو من الاجتماع وفيه.

فلنعلم، يا صديقتي:
أنّ الضعيف لا يصبح قويًّا عملانيًّا؛
وأنّ الفقير لا يصبح مكتفيًا عملانيًّا؛
وأنّ العمل لا يتأمّن للجميع عملانيًّا؛
وأنّ المساواة لا تتحقّق عملانيًّا؛
وأنّ السعادة لا تطفو على الوجوه عملانيًّا؛
وأنّ السلام لا يبلغ القلوب عملانيًّا؛

هي تجارب إنسانيّة:
- للحدّ من سيطرة القويّ على الضعيف.
- وللحدّ من متاجرة الغنيّ بمال الفقير.

- وللحدّ من إعادة خلق العمل،
عبر توظيف مال الفقراء في حاجات الأغنياء.
- وللحدّ من استقواء الناجحين علىالساقطين.
- وللحدّ من تعاسة ملء فراغات الذات بالممتلكات،
وهي المتعطّشة، أصلاً،
لابتسامات من كان بمقدورهم ملؤها فرحًا من
عطاءاتها.
- وللحدّ من الدفاع عن أنانيّة الذات،
للتمكّن من الاصغاء إلى دعوات الآخرين لها.

هذا هو المجتمع يا صديقتي.
هو هذه التجارب الإنسانيّة التي تجعل،
من الإنسان الاجتماعيّ المنضبط سلطويًا،
إنسانًا متحرّرًا،
هو هذا النضال الحقوقيّ الذي يجعل،
من الإنسان الغارق في أنانيّته إنسانًا قادرًا على الاصغاء
وعلى الاعتراف بحاجات ورغبات الآخرين

هو هذا الحوار الثقافيّ الذي يجعل،
من الإنسان المنطوي على ذاته في ثقافته
إنسانًا منفتحًا على الثقافات كلّها،

وقادرًا على صيانة نفسه في نظرة الآخرين إليه.

أمل وأين يوجد هذا المجتمع خارجًا عن خيالك؟

عبدو خيالي هو من الخيال الإنسانيّ المنطبع فيّ،
والخيال الإنسانيّ هو هذا الخيال المستمدّ
من عظمة المشهديّة الإنسانيّة المنطبعة فيه.

هذه المشهديّة هي التي تصنع المجتمع.
ورغبة الإنسان في بلوغ هذا الخيال
هي التي تدفع به إلى تخطّي
رتابة واقعيّته، وعبوديّة أنانيّته،
وهي التي توجّهه نحو درب المجتمع.

من الخيال الإنسانيّ، تبنى العدالة؛
ومن الخيال، تتحقّق المساواة؛

ومن الخيال، يصبح بمقدور الفقير أن يغتني؛
ومن الخيال، يشارك من لا سلطة لهم
في أخذ القرارات التي تعنيهم،
والتي يصبح عليهم أن يلتزموا بها.

- فكيف نعيد إلى الإنسان خياله،
وإلى اللبنانيّ حلمه،
بعد أن حطّمتهما حدوديّات الواقع المؤلم؟

- كيف نعيد للإنسان خياله،
وقد أطاح به الخيال التكنولوجيّ،
الذي يطرح احتمالات غير محدودة
لعوالم ممكننة، تجعله،
إمّا أن يبتعد كليًّا عن واقعه الحاليّ،
أو أن ينفر منه، ويقلّل من الاهتمام به؟

- كيف نعيد للإنسان خيالاً
يدفعه إلى التقاط الجماليّات القابعة،
والقدرات الكامنة في حضن الواقع،
والتي تغطّيها الواقعيّة المبرمة،
فتجعل منها سرابًا أو حلمًا غير قابل للتحقيق؟

أمل آهِ من أسئلتكَ.
هي تصيب حركيّة الواقع الحاليّ
على المستويين اللبنانيّ والعالميّ
في عمق الطاقات التي تحرّكه،

وهي تتغلغل في عميق أحشائي في آن،
فتجعلني أرتجف كورقة خريف
في مهبّ الرياح التشرينيّة.

أنا، يا أيُّها الباحث في خوالج الرّوح،
أشعرَ معكَ بعمق الهوّة التي أحدثتها
ارتجاجات سرعة حركة الحياة الماديّة،
والتي انسابت في كلّ أصقاع الأرض،
كالمياه الهائجة،
فأحدثت فيضانات هائلة،
انشقَّت لعُظمِ هديرها الأرض،
وانفصلت الضفاف المتكوِّنة هكذا بعضها عن بعض.

فإذا بنا،
نرى اليوم أكثر وأكثر،بعضَ الناس الموجودين
على عدد من الضفاف المتكوِّنة بهذا الشكل،
يركضون بسرعة
ليجاروا فيضان المياه المتماوجة في انحداراتها،
والمتهاجمة نحو الأجوبة التي لا سؤال لها،
وهي تشبه العدم في بداهة ثقتها بنفسها.

وإذا بنا،
نتبيّن البعض الآخر،
على الضفاف الأخرى،
يشيحون ببصرهم عن أمواج البحار والأنهار المتآكلة،
فيتأبّطون جذور الأرض،
ليحتموا من الهيجانات المجاورة.

وإذا بنا أخيرًا،
نرى هؤلاء المتأبّطين بالجذور يبحثون،
في تعاريجها،
عن كلّ الجوابات التي تقلقهم أسئلتُها،
فيتلقّطون بهذه الجوابات،
كمن يتلقّط الهباء،
ليجعل منه صخرة لا تفتّتها الأزمنة،
يبنون عليها صروحهم،
ويعملون على حماية هذه الصروح
بسلطة مخاوفهم،
علّ هذه السلطة تحميهم بدورها
من ارتدادات هذه المخاوف عليهم.

أمام هذا المشهد،

أنا مثلُكَ، يا أيُّها الباحث الهائم بالبحث،
أجد نفسي بين هذه الضفاف
المتواجهة في تراكضاتها المتعاكسة.
أنا مثلك، أشعر بالدّوار بين هذه الضفاف،
حيث على إحداها تتسارع الأزمنة
ركوضًا نحو نهاياتها،
وعلى إحداها الأخرى،
تتراجع الأزمنة نحو بداياتها،
لتطمئنّ أكثر على متانة أصولها.

أنتَ وأنا، يا رفيقي،
وكلّ الذين أرادوا أن يتوقّفوا لهنيهات
على طريق الزّمان،
ليراجعوا ذاتهم الفرديّة والجماعيّة،
التي تتآكلها هاتان الحركتان،
هم من يبقون مع فكرة المجتمع.

فما العمل، لكي نتمكّن
من أن نُداور الدُّوار الذي يصيبنا أوّلاً،
ومن أن نواجه هاتين الحركتين،
على أرض لبنان ثانيًا،

علّنا نتمكّن من أن نواجههما
مع كلّ الذين يشاركوننا
الحالة نفسها في العالم ككلّ، ثالثًا؟

عبدو على السؤال: ما العمل لإعادة إحياء فكرة المجتمع،
في صلب الاجتماعات البشريّة المتواجهة اليوم
على النحو الذي سبق ورسمتِ ملامحه بوضوح،
هناك سبيل واحد:
التوقّف عن كبت الرّوح،
روح الخلق والخيال والعدل والمحبّة في الإنسان.

فالرّوح هذه، هي وحدها،
قادرة على مجازاة السرعة والسيولة
اللتين بلغتهما المادّة؛
وهي وحدها في استطاعتها التفوّق
على هاتين السرعة والسيولة بأضعاف وأضعاف.

أمل ما بالك تتّجه بي دومًا إلى أبعد من السؤال؟
ما بالك،
كلّما حاولت أن أقترب معك من ماديّة الحياة،
تعيدني إلى ما لا يصلح إلاّ لما بعد الحياة؟

أنا أسألك عن كيفيّة مواجهة
التيّارين الكبيرين المتعاكسين في توجّهاتهما،
والمخالفين، على حدٍّ سواء،
للتيّار المطلوب لتجسيد فكرة المجتمع
على أرض المعمورة،
وأنتَ تنظر إليّ، بكلّ اهتمام،
ثمّ تدعوني إلى التطلّع نحو درب الرّوح،
مطالبًا بالتوقّف عن كبتها.
فما شأن كبت الرّوح هذا بضياع المجتمعات،
وبتحلحل فكرة المجتمع؟
بربِّك، قل لي،
ما شأن ذلك بسؤالي؟

عبدو كبت المجتمع، يا صديقتي،
هو من كبت الرّوح،
لأنّ المجتمع هو عقد شراكة
هو عقد بين أصحاب الانتماءات والمصالح المختلفة
والمتباينة،
على قاعدة المساواة في الحقوق الواحدة،
ولأنّ العقد لا يصلح،
إلاّ إذا اقترن بمقصديّة الوعد وروحيّة العهد.

المجتمع يا صديقتي،
هو عقد مساواة وعدالة.
وهو عقد تضامن وشراكة في أخذ القرار،
وفي إدارة الشأن العامّ.

والعقد هذا،
لا يصحّ إلاّ إذا كانت النوايا
قد صُفّيت من رغباتها الأنانيّة المهدِّدة
لكلّ مساواة وعدالة وتضامن وشراكة.

والنوايا الصافية المعنيّة هنا،
هي في إرادة الخير والحبّ والوفاق.
والإرادة المطلوبة،
هي في الرّوح الباعثة للحياة فينا والمدافعة عنها.

المجتمع، هو روح الإنسانيّة.
هو هذه الروح المتجسّدة
في العلاقات بين الذات وأخريّتها،
وبين كلّ ذات والذاتيّات الأخرى
التي تناضل من أجل التعرّف على فرادتها
خارجًا عن كلّ فردانيّة.

بهذه الرّوح،
يعيد المجتمع صياغة العلاقات الإنسانيّة كلّها،
ليجعلها تؤلّف جسمًا واحدًا
جسمًا يصون الوفاق والوئام والسلام بين البشر.

هذا الجسم هو كيان المؤسّسة.
هو هذا الكيان الذي يتّحد فيه الأفراد
ليبنوا ذاتهم الجماعيّة المناضلة من أجل غيريّتها.

والجسم المؤسِّسُ هكذا لوحدة الكيان المجتمعيّ،
لا يقوى ويترعرع بثباته وجموده،
بل بإعادة مأسسته، بصورة دائمة،
عبر نضال ثابت
من أجل مراجعة الحقوق الإنسانيّة،
انطلاقًا من الذين يسقطون في تجربتها.
والنضال هذا، لا يثبت ويدوم،
باللجوء الميكانيّ إلى قوى الضغط،
من داخل لعبة السلطة،
بل باستلهام نفحات الرّوح.

فإذا انتفت هذه النفحات،
فُقدت طاقة النضال،
ووقعت المؤسّسة في فخّ السلطة،
ما يؤدّي بالجسم المجتمعيّ إلى الانحلال،
فالزوال.

أمل نعم... نعم... ثمّ نعم...
أنا موافقة معك في دفاعك عن الرّوح...
ولكن، كيف يمكن إعادة بعث هذه الرّوح اليوم
كيف يمكن إعادة أحيّائها
في الكيانات المؤسّسيّة للدول،
وفي كلّ البلدان القائمة على أرض المعمورة؟
كيف يمكن ذلك،
وقد تغلّبت على هذه الكيانات
سرابات الوعود الآتية من الخيال التكنولوجيّ
الذي يدفعها نحو أنانيّات السلطة
واقتدار القائمين عليها؟

عبدو جوابي على سؤالكِ هذا يشبه الرّهان؛
لأنّ استلهام الرّوح،
لا يصحّ، إلاّ في الرّهان عليها.

وإذا أردنا فعلاً استلهام الرّوح المجتمعيّة،
فسيكون علينا الرهان
على عكس الرهانات القائمة حاليًّا في العالم المعاصر،
وبخاصّة في البلدان المتقدّمة
لأنّ هذه الرهانات التي تعكّر مسيرة الرّوح.

بناءً عليه:
سيكون علينا، أوّلاً،
الرّهان على الإيمان قبل اللجوء إلى العقل
ومفرزاته التكنولوجيّة الحاليّة،
مع علمنا المسبق بأنّ هذا الرّهان
سوف يتطلّب منّا القيام بمجهودين كبيرين، هما:

الإيمان بأنّ في كلّ المعتقدات والثقافات المرتبطة بها،
نفحًا خاصًّا من التوكّل على الضمير الإنسانيّ الحيّ،
وعلى الخلق الإنسانيّ الصافي،
النابعَين من المقاصد الإلهيّة.

والإيمان بأنّ هويّاتنا الصحيحة،
ليست في تأكيد مظهريّاتها الثقافيّة الحاليّة،
بل في الرّجوع إلى تراكمات ثقافات ماضيها،

وفي البحث الدؤوب عن معنى وجودها،
عبر السفر نحو تعابير هذا المعنى اللامتناهية
في الثقافات المختلفة والمتنوّعة.

- وسيكون علينا، ثانيًا،
الرّهان على الإنسان الطفل،
هذا الإنسان الكامن فينا،
في سذاجة قبوله بالحلم والوعد والخيال،
قبل التقيّد بالإنسان البالغ،
الذي تستقرّ عليه حالنا،
والذي يجعلنا نعتبر أنّه علينا
أن نكون مالكين لقدراتنا،
ومسيطرين على أحلامنا وخيالنا،
وقادرين على الفصل بين الحقّ والباطل،
على قاعدة المقاييس العقلانيّة
التي يُسمح لنا باللجوء إليها، دون سواها.

- وسيكون علينا، ثالثًا،
الرّهان على الإنسان العالميّ فينا
هذا الإنسان الذي يحرّك،
في ضمير كلٍّ منّا،

ضرورات التوجّه نحو مخاطبة عالميّتنا،
في ذواتنا وفي كلّ العلاقات التي نبنيها مع الآخرين،
من المستوى المحلّيّ إلى المستوى الوطنيّ،
ومنه إلى المستوى الكونيّ.

وسيكون علينا في هذا التوجّه،
الكفّ عن الرّهان على العولمة،
كتحقّق شموليّ للثقافة والعقيدة وحقوق الإنسان
كما وللسلطة، والمال، والتجارة،
كونه تَحَقُّقٌ لا نملك تجاهه أيّة قدرة،
سوى مجاراته والتكيّف معه.

- وسيكون علينا، رابعًا،
الرّهان على الثقافة كإيمان بالقيمة الإنسانيّة
الموجودة في كلّ تقليد ثقافيّ.
وسيكون علينا،
خاصّة في هذا المجال،
السعي إلى فهم هذه القيمة،
عبر الإصغاء إلى تعابيرها المختلفة،
وعبر الاعتراف بهذه التعابير،

كصيغ متنوّعة للبحث
عن المعنى الواحد واللامتناهي للوجود.

أمل وما دور لبنان في كلّ ذلك،
وقد سبق وقلت:
أنّه عندما يصطلح المجتمع في لبنان،
فهذا يعني أنّه في حالة الاصطلاح في كلّ العالم؛
وأنّه عندما تنتهي في لبنان،
فهذا يعني أنّ المجتمعات الأخرى،
وبخاصّة تلك التي تنتمي إلى الثقافات الإبراهيميّة،
هي على طريق السلام؟

عبدو دور لبنان، هو أن يقوى بتعدديّة أبنائه،
وبحوارهم الدائم في ما بينهم.

ودور اللبنانيّين هو أن يقوموا بالرّهانات المذكورة أعلاه،
وأن يؤمنوا،
بجميع تعرّجاتهم العقائديّة والثقافيّة، بدوره.

هذا الدور يقتضي، أوّلاً،
أن تقدِّم الثقافات الدينيّة الثمانية عشرة،

المقيمة على أرض لبنان،
مثالاً للسلام العالميّ.

وهذا الدور يقتضي ثانيًا،
أن يؤمن جميع المنضوين إلى أرض لبنان،
بعضهم ببعض،
كإخوة من بيوت مختلفة،
عاشوا تواريخ متباينة،
لكنّهم يسعون دائمًا للتقارب في ما بينهم.

وهذا الدّور، يقتضي ثالثًا،
أن تقوم هذه المؤسّسات العقائديّة،
المتجاورة في لبنان بإصلاح ذاتها،
لتصبح قادرة على التصالح مع غيرها،
على أرضه،
التي سبق وقلت عنها،
إنّها امتداد لمدينة السلام أورشليم،
هذه المدينة التي تجتمع فيها
صروح الأديان والثقافات الإبراهيميّة:
اليهوديّة، والمسيحيّة والإسلاميّة.

أمل يبقى يا صديقي، أن تخبرني،
بكلّ صراحة،
هل يمكن للّبنانيّين أن يراهنوا،
بهذه الطريقة،
في الاتّجاهات المعاكسة للرهانات العالميّة القائمة؟

بمعنى آخر:
هل يمكن لهم أن يراهنوا على انفتاحات الطفل
وعلى قبوله بالحلم والوعد والخيال،
بينما العالم يراهن على حذاقة البالغ
وعلى واقعيّته في رعاية مصالحه،
عبر مواجهةٍ تنافسيّة مع مصالح الآخرين؟

هل يمكن لهم أن يراهنوا على عالميّة الإنسان،
أي على قدرته أن يكون
في مكانه وفي كلّ مكان:
سيّدًا حرًّا مستقلاًّ،
بينما العالم يراهن
على عولمة التجارة والسلطة والمواصلات،
بما يحقّق سيطرة الأقوياء على الضعفاء؟
هل يمكن لهم أن يراهنوا على ثقافة الانعتاق الثقافيّ،

أي ثقافة التفتّح على الثقافات كلّها،
بينما العالم يراهن على مدّ الشعوب كلّها
بثقافة التكنولوجيا الآحاديّة؟

ويبقى يا صديقي أيضًا،
أنّه كيف يمكن للّبنانيّين
أن يلعبوا دورهم الحواريّ والوفاقيّ،
بين الثقافات الإبراهيميّة
التي تقيم عيّنات منها على أرضه،
ما دام أنّ العالم
يسعى إلى تقوية عددٍ محدّدٍ جدًّا
من الجماعات الثقافيّة،
من ضمن لعبة السلطة القائمة فيه؟

على هذا الأساس،
كيف لها أن تنتهي في العالم،
وفي لبنان خاصّة،
كيف لها أن تنتهي في هذا الوطن
الذي يقبع فيه حلم السلام الهائم
بين شطآنه وجباله ووديانه،
ما دامت شروط اشتعالها في كلّ حين

تزداد يومًا بعد يوم؟

عبدو أرأيتِ يا صاحبتي،
أرأيت كم هو سهلٌ طرحُ هذا السؤال:
هل تنتهي؟
وكم تبلغ صعوبة الردّ عليه؟

هل تنتهي،
يا أمل النور والسلام
على أرض اللقاء والوفاق،
لبنان،
يبقى سؤالاً عاصيًا
على عقلنا التكنولوجيّ السائد في أيّامنا الزائفة هذه.

هل تنتهي؟
هذا سؤالٌ لا جواب له إلاّ من الرّوح وفي الرّوح،
من روح المجتمع وفي روحه.

فكلّما تعاضد أهالي ما بين الضفّتين:
ضفّة الراكضين بسرعة البرق
نحو العدم اللامع وعدًا غشّاشًا،
وضفّة المتأبّطين


سراديبَ الماضي ودهاليزه ومتاهاته؛
وهم يبحثون فيها عن مكاسب فنت،
وعن أحلامٍ تشبه فراغ القبور،
كلّما استقدموا إليهم،
أي أهالي ما بين الضفتين،
أعدادًا متزايدة من المسرعين
نحو المستقبل العدميّ،
ومن المتعرّجين في اتّجاه الماضي التأصّليّ.

هي روحهم المجتمعيّة،
ونواياهم الإنسانيّة الصادقة،
ونضالاتهم من أجل هاتين الروح والنوايا،
التي سوف تجتذب الآخرين إليهم،
فيقوون بذاتهم،
ويغلّبون السلام على أهواء الحرب القائمة حاليًّا.

فمتى سيعي اللبنانيّون:
أنّه من مهمّاتهم الأولى
أن يعيدوا بعث هذه الرّوح
في أعماق ذواتهم،
التي تسيطر عليها ظلامات الحروب وأهواؤها،

وأنّه، من أدوارهم الأساسيّة
أن يبنوا النواة الأولى للحوار بين أبناء إبراهيم،
على أساس المساواة فيما بينهم،
دفعًا للرّوح المجتمعيّة،
كسلطةٍ وحيدة تجمعهم في لبنان والعالم؟

المحتوى



9 789953 457109
ISBN 978-9953-457-10-9